

خطاب التقديم عند مختار الأحمدى نويوات

خصائصه وموضوعاته

Introductory Discourse in Mukhtar Al-Ahmadi
Nouwat: its properties and its themes

البشير عزوزي* (1)

جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريش، (الجزائر)

Elbachir.azzouzi@univ-bba.dz

تاريخ النشر: 2025/12/26	تاريخ القبول: 2025/12/03	تاريخ الإرسال: 2025/09/20
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز خصائص خطاب التقديم في المجلات العلمية، والتي اخترنا منها افتتاحيات مختار الأحمدى نويوات لمجلة اللغة العربية الصادرة عن المجلس الأعلى للغة العربية، وهي في نظرنا افتتاحيات جادة تحمل فكراً معرفياً متكاملًا ورؤية لغوية ثاقبة، عالج من خلالها قضايا لغوية وأسئلة معرفية مختلفة تتناسب مع طبيعة المقالات المنشورة في كل عدد، ومن أبرز القضايا التي عالجها قضية العدالة اللغوية، والتي كانت مشتركة معرفياً بين أغلب افتتاحياته، حيث يعتبر اللغات سواء في الدراسة اللسانية، وإنما يكون التفاضل بما ينتجه مستعملوها علمياً وثقافياً وحضارياً معتبراً العيب في الإنسان لا في اللسان.

الكلمات المفتاحية:

خطاب التقديم؛ المجلات العلمية، العتبات النصية؛ اللغة؛ الثقافة.

* أستاذ بقسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريش، الجزائر.

Abstract

This study seeks to highlight the characteristics of introductory discourse in scholarly journals. Particularly, we focus on the works of Mukhtar al-Ahmadi Nuiwat in the Journal of the Arabic Language, published by the High Council of the Arabic Language. From our perspective, these are serious editorials that express a comprehensive body of knowledge and a keen linguistic vision. Through them, the author addresses a range of linguistic issues and epistemological questions aligned with the themes of each issue's articles. Among the topics he treats is linguistic justice, which constitutes a recurrent epistemic thread across most of his editorials. He argues that all languages are equal within linguistic inquiry, and that any differentiation lies in what their users produce—scientifically, culturally, and civilizationally, holding that shortcomings are due to humans rather than to the language itself.

Keywords:

Introductory Discourse, scientific journals , text threshol, The language, The culture

مقدمة:

يعتبر خطاب التقديم عتبة الفهم الأولى ومحطة القراءة الأساسية بوصفه خطاباً كثيفاً جامعاً لما يحويه الكتاب من مادة مفصلة بين دفتيه، لذلك اهتم به العلماء على مرّ تاريخ التأليف العربي العريض، فنُسجت مقدمات خالدة بخصائصها الخطابية المميزة وأبعادها المعرفية الخالصة، وقد حظي هذا الخطاب المقدماتي باهتمام العلماء والنقاد شرحاً وتحليلاً وتأويلاً وتبياناً لخصائصه الفريدة، كما عُدّ في دراسات تحليل الخطاب المعاصرة عتبة مهمة من عتبات الفهم وخطوة أولى لتحليل الخطاب، فمن دراسات مقدمات كتب الأولين وما فيها من هواجس الإبداع والتميز إلى مقدمات المحققين النفيسة إلى الكتب اللغوية والنقدية والأدبية المعاصرة، وكذا تقديمات الدواوين الشعرية والخطابات السردية، دون أن ننسى مقدمات الترجمات التي تخضع لعناية خاصة، وتتكى على منهج خاص، غير أنّ الدراسات التي اختصت بخطاب التقديم أهملت خطاباً تقديمياً هاماً، ألا وهو مقدمات المجالات العلمية المحكمة، هذا الخطاب الذي له أهمية بالغة غير أنّه لم يحظ بالعناية من طرف المهتمين بالخطاب المقدماتي، وفوق هذا فرط فيه رؤساء التحرير أنفسهم، فأصبحت مقدمات أعداد علمية نفيسة مجرد فقرات مختصرة عامة شكلية لا روح فيها ولا فائدة، لا تعدوا أن تكون كلمات ترحيبية وعبارات شكر وتقدير لمن ساهم في إخراج العدد.

إننا في هذا البحث الذي نرى أن موضوعه لم يتناول بالقدر الذي يستحق، نبين قيمته العلمية ونظهر أهميته البحثية فنسلط الضوء على الافتتاحيات الجادة التي وعت أهمية التقديم العلمي واستغل أصحابها ذاك الفضاء لإبراز رؤية فكرية معينة وموقف علمي محدد من خلال مقارنة الكم المعرفي المنشور في كل عدد ووضعه في ميزان التجربة العلمية الطويلة، ومن أهم الخطابات التقديمية القيمة افتتاحيات الأستاذ مختار الأحمد نويوات لمجلة اللغة العربية الصادرة عن المجلس الأعلى للغة العربية، تلك الافتتاحيات التي جمعت كلها في كتاب واحد (عن اللسان وفي البيان) - وهو الذي اعتمدناه مدونة للدراسة - وقد تنوعت بتنوع التوجه العلمي لكل عدد من أعداد المجلة، فتناول عددا كبيرا من القضايا المعرفية واللسانية والترجمية، وعالج تساؤلات مهمة كحوار اللغات وعلاقة اللغات بالإنسان وانفتاح اللغة وخطر العزلة اللغوية والثقافية، وموت اللغات ووضع اللغات في زمن الرقمنة وغيرها من الموضوعات التي عبرت بحق عن أهمية خطاب التقديم وأظهرت قيمته العلمية، وكشفت عن وعي لساني عميق ورؤية لغوية مؤصلة، ومما تجدر الإشارة إليه أن مختار الأحمد نويوات قد رسم لمقدماته منهجاً معرفياً سمحاً ونظرة لغوية عادلة تجعل اللغات كلها في ميزان علمي واحد لا يفاضل بينها إلا ما قدمه الناطقون بها من نتاج علمي ونشر معرفي ومشاركة حضارية، وهو ما جعلنا نصف منهج الباحث بالعدالة اللغوية؛ فاللغة ليست مظهراً اجتماعياً أو حالة نفسية بقدر ما هي هم علمي يؤرق ناطقها لخدمتها والزج بها في الواقع الثقافي والركب العلمي والحوار الحضاري العالمي.

1/ خطاب التقديم والوعي المبكر:

تناول كثير من الباحثين خطاب التقديم وكشفوا عن مكنوناته المعرفية وأظهروا إمكاناته الخطابية المختلفة، وأنواعه وبناءه الفني، وإذا أردنا التأصيل المعرفي لخطاب التقديم وجدنا كتب التراث العربي والإسلامي النموذج الأكمل والمثال الأظهر لهذا الخطاب، حيث تنبّهوا لمقام هذا الخطاب ووقعه على المتلقي فاعتنوا به اعتناء فائقاً وأخرجوه إخراجاً رائعاً، وسنوا له سنناً معرفية ورسوموا له تقاليد منهجية عبرت بصدق عن اكتمال شكله الخطابي الفريد، ولهذا فـ«المقدمة تطلق على تلك المعلومات التي يتقدم بها المؤلف أمام قارئه لاطلاعه على أهمية الكتاب ومقاصد صاحبه فيه، وتنبيهه إلى ارتباط تلك المعلومات بطبيعة الكتاب؛ حتى يكون القارئ على بينة من طبيعة الكتاب؛ فينتفع من تلك المقدمة في وضع الكتاب في إطاره المعرفي وسياقه التاريخي، وتحديد منهجه ومضمونه» (أرحيلة، 2017، ص104)، ومن هنا فالمقدمة في الكتاب الإسلامي غدت شيئاً مقدساً وأمرأً بالغ الأهمية فلما تحمله من معلومات مهمة قد لا يطبقها النص؛ فهي خارجة عنه وفي الوقت نفسه مؤطرة، موجّهة وموضّحة، ولا يمكن أن ننسى أهمية

المقدمة في مجال التحقيق كإثبات نسبة الكتاب إلى عصر أو فكر أو مؤلف، وهذا ما يفسر أن المقدمة « قد كانت ظاهرة مرافقة لتاريخ الكتاب؛ يفسر عنها حين تفقد، وتستكشف عناصرها وتحدد شكلاً ومضموناً». (أرحيلة، 2017، ص84)، فالمقدمة طيلة تاريخ الكتاب الإسلامي استطاعت بحق أن تكون خطاباً موازياً ونصاً مصاحباً بوظائفها الخطابية المتعددة، والتي نذكر منها: (أرحيلة، 2017، ص104)

- وظيفة تحضيرية تجعل القارئ مهياً لما في ثنايا الكتاب.
- وظيفة توجيهية؛ تحدد المنهج وتوجه الفكر.
- وظيفة كشفية؛ تشرح العمل وتبين نوعه وتكشف عن ظروف إنتاجه.
- وظيفة استدراجية؛ تربط القارئ بموضوع الكتاب وتدخله فيه وتجعله حاضراً متتبعاً.

إن هذه الوظائف الهامة والمتعددة للمقدمة تتعلق كلها بالمتلقي، وهذا ما يكشف عن الوعي المبكر لأصحاب التأليف بقيمة المتلقي وبصفة أدق بأهمية اللحظة الأولى للتلقي، والتي دون شك لها الأثر البالغ في صياغة موقف التلقي، وهذا ما جعلها محطّ عناية ومحلّ رفعة من طرف أصحاب التأليف، فميزوها بلغة خاصة وأسلوب عجيب وكثافة علمية ملفتة؛ فقد حوت بعض المقدمات مفاتيح علوم وملخصات فنون برمتها، فتعددت عناصرها وتنوعت أغراضها، وكثرت تسمياتها: مقدمة، فاتحة الكتاب، صدر الكتاب، الديباجة، خطبة الكتاب، الاستفتاح، الاستهلال، وغيرها من التسميات. وإذا نظرنا في ذاك الإنتاج التقديمي المميز وجدناه أصنافاً سبعة نوردتها باختصار كما يلي: (أرحيلة، 2017، 131)

- خطاب تتمثل فيه ديباجة الكتاب الإسلامي.
- خطاب موضوعي: عناصره ثابتة.
- خطاب موضوعي: عناصره متغيرة.
- خطاب يمتزج فيه الموضوعي بالذاتي.
- خطاب ذاتي.
- خطاب يشرك القارئ في المسؤولية المعرفية.
- خطاب عام تدرج فيه كثير من الحقائق والإفادات.

ولكلّ صنف من هذه الأصناف خصائص وعناصر جعلته يوصف بهذا الوصف، وهي كلها تدلّ على الاكتمال المبكر لنماذج الخطاب المقدماتي في التراث العربي والإسلامي في سائر العلوم والفنون، وللتفصيل في هذه الأصناف يستأنس بكتاب هواجس الإبداع في التراث العربي، دراسة في مقدمات الكتاب

الإسلامي، لعباس أرحيلة، وكتاب: عتبات النصّ في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر ليوسف الإدريسي.

2/ العتبات والفهم قبل النصّ:

إذا نظرنا في الخطاب المعاصر وجدنا خطاب العتبات قد خُصّ بعناية فائقة، خاصة مع تطفّن مناهج تحليل الخطاب إلى عتبات كثيرة تعدّ بحقّ مفاتيح وإشارات تُكوّن تصوّراً تأويلياً استباقياً هو لبنة الفهم وأساس التأويل، فإذا كانت «عتبات النصّ بنيات لغوية وأيقونية تتقدّم المتون وتعقبها لنتج خطابات واصفة لها؛ تعرّف بمضامينها وأشكالها وأجناسها وقنع القراء باقتنائها» (الإدريسي، 2015، ص21) والإقبال عليها، فإنّها الأجدر بالتمعّن والتلقّي المتأنّي، «فعتبات النصّ – بلا شكّ – أقرب إلى التأويل من النصّ نفسه» (إسماعيل، 2019، ص16)؛ وذلك أنّ هذه العتبات ما هي إلّا بنيات لغوية واسعة الدلالة شديدة الكثافة؛ فالعنوان والإهداء والمقدمة بأنواعها وأشكالها قد تكون آخر ما يكتب، أي بعد الانتهاء من العمل لتكون ومضة معرفيّة وشحنة فكريّة تجمع شتات الكتاب في كلمة أو جملة أو فقرة أو نصّ.

لقد نتج عن هذه الثورة التأويليّة العتباتيّة عتباتٌ كثيرة تحيط بالنصّ وتمهّد فهمه وتكثّر معناه، وترتبط صلته بوجوده المعرفيّ، ومن أهمّ هذه العتبات: المؤلّف، الغلاف، دار النشر، العنوان، الإهداء، الفهرس، الهوامش، المراجع، الهوية، كلمة المؤلّف، كلمة الناشر، المقدمة وما يقوم مقامها من: استهلال، تصدير، تمهيد، توطئة، ديباجة، ولعلّ أهمّ عتبة في نظرنا (المقدمة) بوصفها فضاء أوسع وأعمق وأدلّ، ونجزم أنّ هذه العناية المعاصرة ما هي إلّا امتداد معرفيّ لما لقيته المقدمة من اهتمام في التراث، حتى وإن زعم بعض المحدثين أنّ سندهم المعرفيّ هو جيران جنت في حديثه الطويل عن العتبات. غير أنّ الذي يميّز به التفكير النقديّ المعاصر هو إدراج خطاب التقديم في حقل دلاليّ واسع هو حقل العتبات - كما قدّمنا -.

تحدّد المقدّمة كـ«خطاب واصف لمضمون الكتاب وأسباب تأليفه، والمنهجية المتبعة في تأليفه»، (الوردات، 2017، ص91)، وهي بمعنى أوسع ووصف أعمّ «خطاب يوضع في الأصل كعتبة تسهّل للقارئ الولوج إلى الكتاب، بالتركيز على الفلسفة العامّة للكتاب أو المؤلّف، وربط بعض النصوص بمناسباتها تسهيلاً على القارئ لفهم مضمونها، ومحاولة الإطاحة بكامل مكونات النصّ الشكلية والمضمونية، وشرح بعض غوامضه ورموزه من أجل تشكيل رأي المتلقّين وصياغة آفاق تلقّيه، وتوجيه قراءاتهم» (الوردات، 2017، ص91)، ومن هنا يتّفق الخطاب النقديّ المعاصر مع الأصول الأولى لخطاب التقديم التي سنّها العلماء المسلمون الأوائل في أنّ خطاب التقديم يمثّل العقد المعرفيّ الأوّل بين الكاتب والقارئ واليد الأولى

التي تمتدّ له لفهم الكتاب، وتبيان أهدافه وتحديد منهجه واختصار فصوله وتحقيق سنده المعرفي وإثبات نسبه الفكري.

3/ خطاب التقديم في المجلات العلمية:

أمّا ما تعلّق بخطاب التقديم في المجلات العلمية فهو تلك الافتتاحيات التي تصدر بها الأعداد الصادرة عن المجلة العلمية بصفة منتظمة، والأصل أن يتولّى تحرير هذه الكلمة رئيس تحرير المجلة، وقد يكون عدد المجلة خاصاً بموضوع معيّن أو حدث معرفي أو ذكرى مهمّة أو مقالات متنوعة، ممّا يقتضي مناسبة الخطاب الافتتاحي لما يتضمّنه عدد المجلة، والتقديم في هذا المجال فسحة معرفيّة مهمّة تؤلّف بين الأفكار وتجمع بين الآراء وتبرز الجديد، فتقدّم مبررات علميّة لبعض المواقف، أو توضّح غامضاً في بعض المقالات، أو تناقش قضية لم تأخذ حقّها من التحليل والنقاش، فتهيّء القارئ لتلقّي مقالات العدد وتقدّم له صورة أولية عنها، ومن هنا فإنّ خطاب التقديم في المجلات العلمية خطاب مهمّ ودقيق، يتطلّب رصيذاً معرفياً وتجربة علميّة وحكمة خطابيّة.

على الرغم من هذه الأهميّة البالغة لخطاب التقديم إلّا أنّنا نرى بعض الافتتاحيات مقتضبة مختصرة بل معتصرة في بعض الأحيان، لا تجاوز كونها كلمات عامّة تقدّم إحصائيات رقميّة عن عدد المقالات وشكر المساهمين من محرّرين ومحكّمين، وهذا لا يعدّ خطاباً تقديمياً بناءً على ما قدّمناه من مهادر نظريّ وتأصيل تاريخي، ولكن بالمقابل نجد افتتاحيات علميّة رصينة في بنائها اللغويّ، ثريّة في بعدها المعرفي، جريئة في مواقفها العلميّة، صارمة في مناقشة محتويات العدد ومطلّعة على الجديد المعرفي العالمي، ومن أبرز هذه الخطابات التقديميّة ما رصّع به مختار الأحمد نويوات مجلة اللغة العربيّة الصادرة عن المجلس الأعلى للغة العربيّة في عشرات الأعداد.

4/ خصائص خطاب التقديم عند مختار الأحمد نويوات:

يندرج خطاب التقديم عند نويوات في الشكّلين السادس والسابع من أشكال خطاب التقديم: خطاب يشرك القارئ في المسؤوليّة المعرفيّة، خطاب عامّ تتدرج فيه كثير من الحقائق والإفادات، ذلك أنّه آمن بمبدأ التفكير الجماعيّ والهّم العلميّ المشترك، وفي جميع مقالاته يتوجّه بالخطاب المباشر أو طرح السؤال إشراكاً للمتلقي في بناء الفهم ومعالجة القضايا المطروحة في مقالات العدد المستفتّح له، مع التنويع في المعارف والتخصّصات، وهذا على حسب المادّة المنشورة في كلّ عدد، ومن أهمّ خصائص خطاب التقديم عند مختار الأحمد نويوات:

- افتتاحيات على شكل مقالات علمية: غزيرة المعلومات والمعارف من علوم وثقافات مختلفة، تكشف عن سعة اطلاع وتجربة علمية، ويميز كل مقال افتتاحي بقضية مهمة هي عنوان المقال وموضوعه: مثل: (افتتاحية العدد 06: خطر العزلة الثقافية، افتتاحية العدد 07: الترجمة وقلة الزاد، افتتاحية العدد 08: اكتساب اللغة ليس في النحو، افتتاحية العدد 18: نفهم المتنبي ولا يفهمون شكسبير، افتتاحية العدد 24: في الشعر) وهكذا في جميع افتتاحياته، فالقضايا المطروحة في العدد تستثير المقدم فيصقلها ويبلورها وفق رؤيته اللسانية التي أطلقنا عليها وصف الإنصاف والعدالة.
- مناقشة كل القضايا المطروحة في العدد: حيث يعرض القضايا العلمية والمستجدات المعرفية والإشكالات المطروحة في مقالات العدد ويثمن ما يستحق التثمين ويناقش ما يستوجب المناقشة، فمن ذلك مناقشته في افتتاحية العدد السادس من المجلة قضية النهوض باللغة والتعليم في افتتاحية سماها (خطر العزلة الثقافية)؛ حيث ناقش قضية الإصلاحات المقترحة لمعالجة بعض الإشكالات المتعلقة بالتعليم ورأى أنها اقتصررت كلفتها على التعليم العالي «إن معظمهم ركز اهتمامه فيما يطرح العليم والتربية واللغة من مشاكل تستوجب حلولاً عاجلة في الجامعات بوجه خاص، أقول بوجه خاص لأن محرري هذا النوع من المقالات أصدروا عن تجاربهم في ميدان التعليم العالي ... والحقيقة أن هذه المشاكل وهذه الحلول تفرض نفسها بحدّة في جميع مراحل التعليم» (نويوات، د ت، ص 183)، ولا يكفي بالعرض والتعقيب فقط، بل يقترح الحلول الإضافية التي تبنى على تصوّر عالمي - وهذا من أوليات نويوات - وكلّ تفكيره يأخذ في الحسبان أننا جزء من العالم وقطعة من نسيجه، وفي هذا المقال الافتتاحي يضرب الأمثلة العالمية الناجحة في الإصلاح التربوي واللغوي، مع تقديم الأدلة الواقعية والإحصائيات الدقيقة.
- كثرة الشواهد الشعرية والتراثية: يبرز عنصر الاستشهاد في افتتاحيات نويوات بصورة ملفتة، وهذا راجع إلى ثقافته الواسعة وإلى منهجه في تقريب الظواهر وتقرير الحقائق وإثبات المواقف؛ فمن الشواهد الشعرية مثلاً: (نويوات، د ت، ص 235)

مَا مَضَى قَاتَ وَالْمُؤْمَلُ غَيَّبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

وقد أتى بهذا الشاهد متحدّثاً عن ماضي اللغة العربية وحاضرها ومستقبلها، وهو شاهد يلخص حال الباحثين؛ ففريق لماضيها يحنّ وعلى واقعها يئنّ، فهو يرى أنّ الغيور على العربية مطالب بالتعامل مع المعطيات الراهنة والنوازل الطارئة والمستجدات المتتابعة، ولا يكفي بتعداد فضائلها وما كتبها النوابغ من أهلها، وهنا يبرز جانب من توازن الفكر اللغوي لمختار الأحمد نويوات، فهو

يمجد العربية تمجيذا لا يمنعه من إلقاء اللوم على مستعمليها وعلمائها بالنظر إلى راهنها الذي لا يرقى إلى قوتها وتميزها وانفتاحها.

- إجلاله للشخصيات الجزائرية المسهمة في النهضة الفكرية واللغوية: وإبراز دورها في النهضة الفكرية واللغوية والأدبية، كما أنه يدعو إلى ضرورة إبراز جهودهم ونشر إنتاجهم والعودة إلى قراءته، لنتقصى مكانهم نبوغهم ونذكر قيمتهم، ومن أهم هؤلاء ابن أبي شنب الذي خصه بمقال طويل وافتتاحية خاصة بعنوان (عالم كدنا أن ننساه) وهي افتتاحية العدد الخامس عشر تعرض فيها لجانب من سيرة ابن أبي شنب وجانب كبير من إسهاماته في النهضة الفكرية والحضارية وخدمة التراث بكل الوسائل من تحقيق وجمع وتأليف، كما تعرض لسيرته والده الشيخ موسى الأحمد نويوات ومشاركاته العلمية وحياته التعليمية الحافلة، ومن هؤلاء أيضاً أبو حفص الزموري وأبو العيد دودو، وابن باديس والإبراهيمي الذي أشاد به وبخدمته للعربية في افتتاحية بديعة (لماذا الغلبة للعربية) وهي افتتاحية العدد الثاني والعشرين، فلا تكاد تجد افتتاحية تخلو من الاستشهاد بعلم من أعلام الجزائر.

- الانفتاح على التخصصات والثقافات: فتراه يغرف من القديم والحديث ومن العربي والغربي ومن اللغة والأدب والثقافة والتاريخ وغيرها، مما يكشف عن باحث موسوعي؛ فهو يغرف من القرآن الكريم معظماً مقدساً ومن الشعر العربي قديمه وحديثه، ومن موسوعات النحو والبلاغة والمعجم، وبالمقابل ترى اطلاعاً واسعاً على الثقافة الغربية وفكر المستشرقين وحركة الترجمة وواقعها في العالم العربي، وعن كيفية التعامل مع هذه الاستحضار المعرفي والاستدلال العلمي، فهو تارة يستحضر الفكرة ليناقشها وينقدها، وتارة يورد القول ليستدل به على قضية معينة، ومن أمثلة ذلك استحضاره لقول المستعرب بلاشير: «لم أجد في العالم أمة درست لغتها كما درس العرب لغتهم» (نويوات، د ت، ص 229)، حين عبّر عن جهد الأولين في خدمة العربية بكل مستوياتها وفي جميع مجالاتها، وكيف لا يكون منفتحاً على التخصصات والثقافات وهو يدق ناقوس خطر العزلة الثقافية على المجتمع العربي فكراً ولغةً وحضارة وخاصة في افتتاحية العدد السادس (خطر العزلة الثقافية).

هذه بعض من خصائص افتتاحيات مختار نويوات التي تبرز أهمية خطاب التقديم في المجالات العلمية كونه بوابة العدد وملخص مادته العلمية، حيث يبدو لنا جلياً أنه قد خط لنفسه منهجاً تقديمياً واضحاً يورد ما في العدد من إسهامات علمية فيناقشها أو يثمنها ويضيف عليها، مشاركاً أصحابها التفكير العلمي والهّم الثقافي، وفي الافتتاحيات خصائص أخرى كالروح العلمية العالية والسماحة الفكرية الواضحة والتواضع في عرض الأفكار ومناقشتها مع لغة علمية تتخير اللفظ وتنقي المصطلح. كما أنه يوجه نصيحة الخبير

المتكّن لبعض الباحثين الجدد وطلبة الدكتوراه حول ما يقع في الأوراق البحثية من خلل منهجي أو معرفي، ولعلّ هذا من أنصع الأهداف التي يرومها خطاب التقديم في المجالات العلمية.

5/ القضايا الفكرية واللسانية في الافتتاحيات:

إنّ المتأمل لهذه الافتتاحيات يجد أنّ نويات قد صبّ فيها عصارة فكره وخلاصة مسيرته العلمية العالمية، واستطعنّا من خلالها أن نتبين موقفه الفكريّ وتوجّهه اللغويّ، خاصّة إذا أخذنا بالحسبان أمرين متقابلين يتنازعانه: اعتزاز لغويّ يسعى من خلاله لكشف نبوغ العربية وإعجازها وعظمتها العلمية وسرّ خلودها، وبالمقابل عدالة لغوية تجعله يلقي باللوم على مستعمليها وغيابهم الوشيك عن المشهد العلمي والثقافي في عالم خدمت فيه أمم لغاتها وفرضتها على العالم، وفيما يلي أبرز ما في الافتتاحيات من قضايا فكرية ولغوية:

- التفكير اللغويّ؛ بين المتكأ الحضاريّ والهّم العلمي:

إنّ الهّم العلميّ الذي حملّه مختار الأحمد نويات وآمن به وظهرت آثاره واضحة في جميع كتاباته هو أنّ العلوم والأفكار والمعتقدات ما هي إلّا نتاج فكريّ يتمظهر في النصوص ويتجلّى باللّغة، ويرتهن انتشاره ومقبوليته بقدرة حامله على التحكّم في اللغة وحسن استغلالها، ومن هنا يتبين خطر اللّغة وعظيم شأنها ووطأة سلطانها، فهي وعاء نقل العلوم والشكل المكتوب منها.

لقد سار نويات على سنن العلم وحقائق المعرفة التي تظهر ما للّغة من دور في التأثير في العلم والعالم الذي يمثل قفصاً لغوياً (مومن، 2007، ص190) تسيّر اللّغة وتؤثّر في سائر معطياته، فاللّغة هي التجلّي الحقيقي للعلوم والإيديولوجيات المختلفة، وكلّما اندفعت العلوم نحو التطوّر والانفتاح كانت اللّغة هي الملاذ الأول والآلية الوحيدة للتعبير عن هذه العلوم وبنّائها في آفاق الفكر الإنسانيّ، كما أنّها أداة حفظها وسيلة تخليدها. ولئن كانت اللّغة بأسطة سلطانها على الفكر فإنّها كذلك مرهونة بما يقدّمه الفكر وما ينتجه العقل.

وإذا تقرر هذا فإنّ قيمة اللّغة العربيّة تتحدّد بما تعبّر عنه من علوم وما تحويه من فنون وما تطويه من أفكار، ولا تتحدّد بالنظر إلى قدمها أو قداستها أو كثرة الناطقين بها فقط، وهذه هي الحقيقة التي آمن بها بعض اللسانيّين في وقت اختلفت فيه النوايا اللسانية بين نوايا استعماريّة وأخرى استكشافية وواحدة عصبية تحتكم في غالبيتها إلى تقديس لغة على حساب كمّ لا يحصى من اللغات البشرية. ومن هنا كان

لزاماً على علماء اللغة الاحتكام إلى هذا الميزان اللغوي العادل والقانون اللسانيّ السّمح، الذي يؤدّي إلى تحقيق العدالة اللغويّة بتصويب النّوايا اللّسانيّة وتعديل ردّات الفعل تجاه الدّوافع وترشيد الاستجابة للمحفّزات.

لقد لمسنا في كتاباته المختلفة - إضافةً إلى اعتزازه بلغته بالإعلاء من شأنها والاجتهاد لإظهار سرّ خلودها ومكان تميّزها - تحميل للمسؤولية لجميع الناطقين بها، وشعاره في ذلك «العيب في الإنسان وليس في اللسان» فاللغة في نظره لا تظهر قيمتها إلّا إذا كان أهلها علماء منتجين مخترعين يغترفون من مواد لسانهم بكلّ حريّة وبسهولة فائقة.

- لغة عربيّة قادرة ومستعملون عاجزون:

في هذه القضية يثبت بالأدلة سعة العربيّة لمختلف العلوم والثّقافات، ويردّ على الذي يتّهمون العربيّة بالجمود والبعد عن العلوم والتّقنيّات وما يتعلّق بهما من أسماء ومصطلحات، وفي هذا يقول: «أمّا ما جدّ من الحضارة والمصطلحات العلميّة والفنّيّة فقد أثبتت اللغة العربيّة على مرّ العصور وبما لا يقبل الشكّ أنّها قادرة على استيعابه»¹، وتاريخ العرب مليء بالحركات العلميّة القائمة على التّرجمة، والتي نقلت علوماً جمّة من لغات وثقافات مختلفة، ولم تكن اللغة يوماً عائقاً ولا مضيقاً، بل فتحت أوزانها ووسّعت ما جدّ وما دخل على العربيّة، ولا زال الأمر واضحاً ثابتاً علماً وواقعاً بفضل ما تقدّمه المجامع اللغويّة في مختلف الأقطار. غير أنّ نويوات بعد هذه النظرة المشرقة المتفائلة للغة العربيّة وسعتها وليونتها ومرونتها يعرض واقعاً لغويّاً يستكر فيه بعض المسائل التي يرى أصحابها أنّها دليل على تطوّر العربيّة وعصرنتها، وذلك في افتتاحية العدد 9 التي وسمها بـ: حتى لا نستكين لعبقرية اللغة العربيّة، وافتتاحية العدد 16 والتي عنونها بـ: نعم ... العربيّة تطوّرت، هاتان الافتتاحيتان القيمتان اللتان عرض فيهما تطوّر العربيّة وقسمه إلى ثلاثة أنواع: تطوّر ديني، وثانٍ طبيعي وثالث حرّ.

- التطوّر ديني (في كنف القرآن): هذا التوجّه الذي يرى أنّه خدم العربيّة وارتقى بها وحفظ لها جميع خصائصها «وفتّق طاقاتها في مختلف العلوم والفنون الإسلاميّة، ومكّنها من استيعاب الحضارات» (نويوات، د ت، 197)، كما نلاحظ أنّ هذا التوجّه يحظى باهتمام وتقدير كبيرين من طرف نويوات بالنظر إلى تكوينه وتكوين أبيه العلامة موسى الأحمد نويوات، ومهما يكن من تخريج لهذا الاهتمام فإنّه لا يمكن لأحد أن ينكر أن المنطلق والغاية والمبتدأ والمنتهى في الدراسات اللغويّة العربيّة إنّما هو من الدّين وإلى الدّين، يستمدّ نوره من مشكاة الوحي ويغرف من سر السماء، وهذا ما لم يتحقّق لكثير من الأمم.

- التطور الطبيعي: هذا التطور هو السنة الماضية على اللغات جميعاً، وهو ما يلحقها بفعل عوامل طبيعية وبشرية وتاريخية؛ فاللغة العربية بفعل انتشارها الزهيب في بقاع العالم شرقاً وغرباً سرى عليها هذا القانون (فاستحالت لهجات دارجة منتشرة في الشرق الأوسط وفي المغرب الإسلامي. (نويوات، د ت، ص 197). وهذا التطور يفقدها الكثير من خصائصها المعجمية والصرفية والنحوية والتركيبية.

- اتجاه حر: وهو تطور علمي ثقافي لا يرتبط بالدين والقرآن الكريم، وإنما هو استجابة علمية لنوازل لغوية تقتحم اللغة بفعل التقدم العلمي والانفجار المعرفي والاكتشافات الكثيرة، مما يحتم على مستعملي اللغة أن يحتووه ويعربوه، ويتحمل التكيف مع هذه النوازل اللغوية علماء اللغة والمجامع اللغوية، وقد ألف في هذا الباب معاجم وموسوعات لكل ما احتوته اللغة العربية وتحملته من المصطلحات والكلمات الجديدة.

في خلاصة حديثه عن العربية ومستعملها يسأل سؤالاً قاسياً يلخص موقفه من واقعها «ولا نترك غيرنا يقول لنا وجهاً لوجه: ومتى تطور العرب حتى تتطور لغتهم؟ سؤال لا يتحمله إلا غيور على شرفه ولا يريد أن يجابه به من يظنون أن داءهم لغتهم مع أنهم داؤها والوازيون وزرها» (نويوات، د ت، ص 215) يأتي هذا السؤال بعد حديثه الطويل عن عصور ذهبية تطور فيها العرب فأنتجوا وملكوا وتوسعوا فتطورت لغتهم وبلغت ما يبلغه غيرها فحملت جميع العلوم البشرية والطبيعية والإلهية، لئلا يبقى مجال للاعتذار أو التبرير فالعيب في كل الأحوال في الإنسان وليس في اللسان.

- من مظاهر النهوض بالعربية الاعتناء بأعلامهما:

فلا علم إلا بمعرفة قيمة صاحبه، وتتبع سيرته وإثباته نسبة المعرفي ونشر ما خلفه من إنتاج علمي، والسعي لإخراجه ونشره، وتطبيقاً لهذا المبدأ نراه يترجم لمجموعة من رموز العربية في الجزائر، وعلى رأسهم والده موسى الأحمد نويوات، وكذلك ابن أبي شنب الذي خصّه بافتتاحيتين، ومحمد البشير الإبراهيمي وابن باديس، وغيرهم من رواد النهضة الفكرية وحركة الإحياء اللغوي في القرن الماضي، هؤلاء الذين خدموا العربية في أحلك الفترات وأصعبها، حين هم الاستعمار بمحوها وهدم أصولها، لولا أن قيض الله لها هؤلاء العلماء قضا أعمارهم في تعليمها سرّاً وعلانية، في البدو والحضر.

بذل نويوات جهده في هذه الفرص الافتتاحية في لإشادة بقيمتهم العلمية والتاريخية، وذكر أبرز أعمالهم ومواقفهم ومجاهداتهم المعرفية والوطنية، وما أشد حاجتنا في هذه السنوات إلى هذه المبادرات العظيمة التي تعرّف الجيل الحاضر بمن حفظ للجزائر لغتها ودينها وأخلاقها وأعرافها في ملتقيات أو ندوات أو مؤلفات أو

حصص تلفزيونية أو مقاطع قصيرة (بودكاست) في وسائل التواصل التي يدمن عليها شبابنا اليوم ويسكنها في اليل النهار ويبني فيها عالمه ويستقي منها ثقافته.

- تعليم اللغة واكتسابها:

لا يقتصر على التحكم في القواعد النحوية وتبسيطها، وإنما في اختيار المادة اللغوية، ويقصد بذلك «المادة اللغوية المناسبة لعصرها، المحررة للألسنة، الكفيلة بجعل المواطن يعرب بلغته عمّا في ضميره وذلك معنى الإعراب في الأصل» (نويوات، د ت، 19). في هذه الافتتاحية (اكتساب اللغة ليس في النحو) وهي افتتاحية العدد الثامن، يعرض نويوات جميع المقالات التي تناولت تبسيط النحو تسهلاً لتعلم العربية وتعليمها مهمة في نظره جانب المعجم والمادة اللغوية، وهي إشارة مهمة جداً بحكم أنّ كثيراً من مستعملي اللغة يعانون فقراً لغوياً مدقماً، فهم يملكون الخيارات المعجمية التي تغني الخطاب وتثريه وتبعده عن التكرار، فالمادة اللغوية من أول طرق اكتساب اللغة، وهنا يدعو الأستاذ إلى البحث في وسائل تبسيط المادة اللغوية واختيار المعجم الذي يتماشى مع العصر ومستجداته الثقافية والاجتماعية والنفسية، ولعلّ هذا ما يبين نداه في افتتاحيات أخرى إلى ضرورة استحداث معاجم بسيطة المادة قليلة الاشتقاقات عديمة التكرار، وهذا كلّ يسهّل طرق التعامل معها والاستفادة منها.

- الترجمة بين الفتوحات العلمية والمخاطر اللغوية:

العزلة العلمية والثقافية قضية تؤرق الباحث في جميع افتتاحياته، فالعالم في نظره - وإن كان قرية واحدة بحكم التطور التكنولوجي - إلا أن العالم العربي يعاني عزلة ثقافية كادت تغيّبه عن المشهد العلمي والثقافي العالمي، ففي العصور الذهبية للفكر العربي انفتح العالم العربي على جميع الأمم «امتزجت الثقافات القديمة في العصر العباسي فأنجبت أمثال الجاحظ والبيروني والتوحيدي والفارابي وابن سينا وأضرابهم كثير» (نويوات، د ت، 193)، فالانفتاح ليس انفتاح أرض أو تجارة وإنما هو انفتاح ثقافي علمي يتيح الاطلاع على النتاج الفكري العالمي الذي يتجدد كل يوم بل كلّ لحظة، والعزلة إنّما هي العزلة في هذا الشأن، وما من أمة انطوت على نفسها وانغلقت على ذاتها إلا وقد نُسيّت ومن تاريخ الحضارات مُحيت.

لا تُفكّ هذه العزلة إلا ببعث الروح في حركة الترجمة ووضعها الوضع الذي يليق، فالحضارة العربية - كما قدّمنا - ما ارتقت ولا فرضت ثقافتها وعلوم على الأمم إلى بالثورة الترجمة التي نقلت علوم الأمم وكيّفتها مع خصوصية الفكر العربي ومبادئه المقدسة، ووعياً بهذا الدور الخطير للترجمة خصّص نويوات افتتاحيات كثيرة تتناول واقع الترجمة في عالمنا العربي، ففي افتتاحية العدد السابع التي وسمها بـ: الترجمة

وقلة الزاد يعالج قضية بالغة الأهمية؛ وهي قلة الزاد اللغوي العربي للمترجم؛ فالترجمة في نظره لا تتوقف على إتقان اللغة المترجم منها، بل تشترط إتقان اللغة المترجم إليها معجماً وصرفاً واشتقاقاً لأن «قلة الزاد من اللسان العربي جعل غيره من الألسنة ينتقصه من أطرافه ويتحكم في معانيه بما يشينها» (نويوات، د ت، ص188)، وها هنا مكن الخطر وموطن الحذر، فتطويع العربية للنص المترجم هدم لها وتضييع لخصائصها وزحزحة لعلو مقامها تدريجياً من العقل المفكر بها واللسان المعرب بواسطتها.

إن قضية الزاد اللغوي العربي والتمكّن فيه قضية مهمة تستوجب نظراً عاجلاً وبقطة سريعة تحمي العربية من الذوبان في النصوص المترجمة، «فقد كثر تداخل اللغات بسبب حركة الترجمة الواسعة التي لا مناص منها لفك العزلة عن مجتمعاتنا، وكثر اللحن في الصيغ وفي التراكيب العربية الأصلية، بل خضعت الأساليب العربية للسلسلة الناصعة إلى أساليب لا تمت إليها بصلة فشابتها الهجنة في المسموع والمقروء على اختلاف مجالاتهما» (نويوات، د ت، ص189)، والواقع يشهد أن لغة كثير من المترجمين أصبحت لغة آلة ركيكة متقطعة ومكررة، وهذا كله بسبب عدم التمكن من اللسان العربي القويم والقلب التركيبي الرصين مع الاستكانة إلى القلب المترجم، بل والذوبان فيه.

من الحقائق العلمية والتاريخية التي نراها ونطالعها أن حركة الترجمة عبر تاريخنا العلمي والثقافي الكبير والتي شملت كل العلوم والفنون، كانت وفق قالب لغوي عربي رهيب وصوغ بياني عجيب، فالقارئ يجزم أن النص مكتوب بلغته الأصلية، فسُهل تلقيه بل وحفظه وروايته، وإذا كان نويوات قد أشاد بالآثار العلمية والثقافية العظيمة للترجمة في سائر افتتاحياته التي تتحدث عن الترجمة، إلا أنه وضع يده على الجرح وهو يدق ناقوس الخطر المعاصر الذي يحرق باللغة بفعل الترجمة والذي سببه قلة الزاد اللغوي العربي للمترجمين.

هذه نُنف من أهم القضايا الفكرية والثقافية التي بثها نويوات في افتتاحياته، ولا يمكننا الإحاطة في هذا المقال بكل القضايا نظراً لكم الهائل من المعلومات التي اختزلها فيها من ثقافات وعلوم مختلفة، وكشفت بحق عن اطلاع واسع وخبرة طويلة، فوجدناه يتحدث عن:

- هيمنة لغات وموت أخرى وحقيقة اللغات الحية وخصائصها، والأسباب التاريخية والعلمية لهذا التدافع اللغوي.

- قضايا الشعر القديم والمعاصر وما سال من حبر في قضية الشعر الحر؛ حيث يرى أن الشعر الحر إنما هو نتيجة حتمية لمحاولات ترجمة الشعر الغربي وتطويعه للقارئ العربي.

- لغة الإعلام بين الفصحى والعامية، وما أثير من جدل حولها، وهنا ينبّه إلى خطر تقريب الفصحى من الشعب ليسهل فهمها، ويدعوا إلى تقريب الشعب من الفصحى، فالصحافة في نظره ليست محصورة في نقل للأخبار، وإنما هي زج بالمستمعين والمشاهدين في عالم الثقافة والعلم والانفتاح على الحضارات، ولا يمكن للعاميات أن تحمل هذا الهمّ الإعلامي الكبير.

- في مجال المعجم يقدّم لنا أوصافاً دقيقة تبين نبوغ أصحابها وموسوعيّتهم وأمانتهم، وبالمقابل يوجّه الانتقاد العلمي الذي من أمثلته اعتماد أصحابها على نقل اللاحق عن السابق، وكذا اعتمادها على عريّة البادية - على حدّ وصفه - وقلة الدخيل والمعرّب وجانب كبير من اللغة.

- من القضايا اللغوية التي قد تتدرج في مجال اللسانيات الاجتماعية والجغرافية، قضية تخصّنا نحن الجزائريين والتي تُعنى بأسماء الأعلام والأسر والبلدان والحيوانات والنباتات، ف« ما أحوجنا إلى فرق علميّة مؤهّلة تجوب بلادنا طولاً وعرضاً وتبحث بحثاً متأنياً شاقاً مرهقاً مثمراً في آخر أمره لتشرح لنا ولغيرنا ما ورثنا من أسماء ومسمّيات» (نويوات، د ت، ص 273) فبلادنا غنيّة بمعجمها الخاص والمتنوّع، ولكن نويوات يشترط في القائمين على هذا العمل مؤهّلات كثيرة كالكفاءة المعرفيّة والصبر العلمي وطول النفس البحثي.

خاتمة:

خلصنا في نهاية هذا البحث إلى نتائج كثيرة سواء أكان ذلك على المستوى التتظيري أم التطبيقي منها ما افترضناه ومنها ما تبين لنا من خلال النظر الدقيق في مدوّنتنا، ويمكن إجمالها في النقاط التالية:

- لقد ثبت لنا من خلال هذا البحث ما لخطاب التقديم من أهميّة بالغة في تهيئة القارئ لتلقّي ما في النصوص المقدم لها من معارف وقضايا، وهذا ما يبرّر الانفتاح الخطابي المعاصر على عالم العتبات والتوسّع فيها بحثاً عن المعنى قبل النص، أو بناء تصوّر تأويلي أولي وإرساء قاعدة متينة للقراءة والفهم، وهذا امتداد معرفي لما حظي به خطاب التقديم في الثقافة الإسلامية بكلّ فروعها.
- خطاب التقديم العلمي سواء أكان في المجلات العلميّة أو الاستكتابات الجماعيّة أو أعمال الملتقيات والندوات لم ينل حظّه من الدراسة على الرغم من تميّزه الخطابي وثرائه المعرفي.
- إنّ النظر الدقيق في مدوّنتنا أفضى بنا إلى أن كثيراً من أعلام الجزائر لم يجمعوا كلّ علمهم في مؤلّفات خاصّة بل نثروه في فرص علميّة ومساحات كتابيّة مختلفة، ومهمّتنا جمع شتاته وإخراجه للباحثين فيطلّعوا عليه ويستفيدوا منه، وما المثال الذي اشتغلنا عليه إلّا شاهد واضح على ما قلناه

- ونبّهنا إليه، فمختار الأحمدى نويات قد بثّ كثيراً من القضايا التي تحتاج تأليفاً خاصاً وبحثاً مستقلاً.
- بثّ نويات علماً غزيراً ومعارف لغويّة وأدبيّة كثيرة جداً في هذه الافتتاحيات متكيفاً مع ما في كلّ عدد من منشورات علميّة.
 - بني نويات خطابه التقديميّ على منهجيّة واضحة وهي عرض أهمّ ما نشر في العدد ومناقشته والتوسّع فيه مع ربطه بالواقع المعرفيّ العالميّ والنوازل الثقافيّة الطارئة في هذا العصر. وقد يتخذ لذلك خيطاً معرفيّاً يربط به بين الأفكار المطروحة والقضايا المطروقة بحنكة معرفيّة وتجربة علميّة.
 - يتّصف خطاب التقديم عنده بلغة علميّة رصينة مختصرة تقرّب الفكرة وتبسّطها لكلّ المتلقّين، كما أنّه ينعقد في كثير من المواضيع لغة بعض الباحثين حتّى ممن نشرُوا في المجلة التي يقدّم لها، وهنا يسدي النصائح ويقدم التوجيهات خاصّة للباحثين المبتدئين وطلبة الدكتوراه.
 - من أهمّ خصائص خطاب التقديم عن نويات كثرة الاستشهادات من علوم كثيرة وثقافات مختلفة قديماً وحديثاً، متأقلاً مع المادة العلميّة المنشورة في العدد.
 - يدعو نويات إلى ضرورة فكّ العزلة الثقافيّة والانفتاح على العالم والدخول في الرّكب الحضاريّ الذي تسيره العقول وتخدمه اللغات، فكّلاً امتدّ سلطان فكر امتدّت لغة أمته وفرضت نفسها.
 - يتنازع كلّ باحث لسانيّ وعالم لغويّ أمران مهمّان انتماء حضاريّ وواقع علميّ، فالانتماء يفرض عليه الاعتزاز بلغته وتبجيلها، أمّا الواقع العلميّ فيضعه أمام التدافع اللغويّ الذي يُحتكم فيه إلى ما أنتجه اللغات من علم ومعرفة.
 - يركّز على أهميّة الترجمة العلميّة وما حقّقته من مكاسب علميّة وثقافيّة عبر التاريخ، ولكنّه ينبّه إلى المخاطر والمحاذير التي تكتنفها، كقلة الزاد اللغويّ العربيّ للمترجمين وضعف تراكيبيهم، ما يؤدّي إلى الذوبان في النصوص المترجمة وإنتاج نصوص ضعيفة لغة وتركيباً.
- في نهاية هذا البحث نجد الدعوة إلى التنقيب عن فكر علمائنا المبعوث في المجالات العلميّة والإصلاحيّة الكثيرة، وإقامة ملتقيات واستكتابات تجمع علمهم وتحصي جهودهم وتثبت دورهم في صون اللغة وحفظ الهوية والجهاد بالفكر والقلم.

قائمة المراجع:

- الأحمدي نويوات، مختار، د ت، عن اللسان وفي البيان، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية
- أرحيلة، عباس، (2017)، هاجس الإبداع في التراث العربي، دراسة في مقدمات الكتاب الإسلامي، لبنان، المؤسسة العربية للفكر والإبداع.
- الإدريسي، يوسف، (2015)، عتبات النصّ في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون.
- إسماعيل، عزوز علي، (2019)، المعجم المفسّر لعتبات النصوص، موسوعة فكرية في الفنون والآداب، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مومن، أحمد، (2005)، اللسانيات النشأة والتطور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- المقالات:
- الوردات، إيهام زياد، العتبات النصّية عند محمّد القيسي، حوليات الآداب واللغات، المجلد 02، العدد 09، ص 89 إلى ص 102؛ (2017)،